

### قصة الموريسكيين

#### ثغرة في الرواية العربية

يتبدى لنا تاريخ الأندلس في مراحلها الأخيرة ، ولا سيما منذ أخذت مملكة غرناطة آخر الممالك الاسلامية في أسبانيا تنحدر إلى هاوية الانحلال ، في صور مضطربة جافة ينقصها التفصيل والوضوح . فاذا انتهينا بعد سقوط غرناطة إلى المرحلة الختامية تبدت لنا قصة الأمة الأندلسية المغلوبة في صور قائمة تزداد حلكا على ممر الزمن حتى تغيض في النهاية في عالم النسيان والعدم .

على أننا نستطيع خلال هذا الحلك الذي يكتنف نهاية الأمة الأندلسية أن نستعرض في جلاء ووضوح صور ذلك الاستشهاد الطويل المؤثر الذي لبثت تعانيه أكثر من قرن من الزمان . ذلك أن ظفر أسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة وسحق دولة الاسلام في الأندلس لم يكن سوى بداية النهاية في مصير الأمة الأندلسية . ولم يكن فقد السيادة القومية وفقد الاستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الديني والاجتماعي ، وهي الحن التي تنزل عادة بالأم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد عدوها الظافر . أجل ! كان مصير مسلمي الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال سلطانهم من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هي مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين . وهي مأساة لا تحتل مع شديد الأسف مكانها الحق في الرواية الاسلامية ، بل إن الرواية الاسلامية تعرض لنا في هذا الموطن ثغرة لا تكاد تتخللها سوى شذور ولحات يسيرة . وهي على وجه العموم مقلة ضئيلة في مراحل التاريخ الأندلسي الأخيرة . ولم ينته إلينا في هذا الموطن سوى رواية إسلامية واحدة تضمنها سفر صغير هو

كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » (١) وهى رواية تتناول حوادث سقوط غرناطة (١٤٨٧-١٤٩٢ م) وحوادث التنصير الأولى التى وقعت بعد التسليم بفترة يسيرة ، كتبها فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) أغنى بعد سقوط غرناطة بـمخمين عاماً مؤلف مجهول ربما كان من أشرف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى سريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة ومأساة العرب المنتصرين . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة سوى رسائل وشذور وقصائد متناثرة نقلها إلينا المقرئ مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ومعظمها مما كتبه أو نظمه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الاسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أن فى عصور الانحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية وتقل العناية بالتدوين التاريخي كما تقل فى جميع نواحي التفكير والأدب . ولدينا فى ذلك مثل بارز فى تاريخ مصر الاسلامية هو ضالة المؤلفات والوثائق التاريخية التى انتهت إلينا عن العصر التركى وهو عصر انحلال فكرى واجتماعى مطبق . وقد كان هذا العامل أشد بروزاً فى المأساة الأندلسية حيث لم تجد الأمة الشهيدة التى صفدت بأشنع الفروض والأغلال ، وأرغمت على نبذ دينها ولغتها ، متسعاً من الوقت أو التفكير لتدوين مآثرها وآلامها ، بل لم يكن يسمح لها بأن تلجأ إلى مثل هذا التنفس الخطر . والعامل الثانى هو ما نرجحه من فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت عن المأساة فى هذا الوقت ، ووضعها على الأغلب نفر من الأندلسيين النازحين إلى المغرب بعد سقوط غرناطة أو بعض الكتاب المغاربة الذين كانت لهم بالأمة المغلوبة أو باللاجئين منها بعض الصلات . وهذا التراث الضائع هو الذى يلوح لنا أن المقرئ وقف عليه وانتفع ببعض مخلفاته مما كان موجوداً منه فى عصره ،

(١) بنو نصر أو بنو الأحمر ملوك غرناطة هم آخر أسرة ملوكية أندلسية . وقد وجدت من هذا السفر نسخة وحيدة فى مكتبة الأسكوريال قام بتحقيقها ونشرها المستشرق الألماني يوسف ميللر ( جوتنجن سنة ١٨٦٣ ) مقرونة بترجمة ألمانية .

أعنى القرن السابع عشر ، فنقل إلينا منه بعض الرسائل والشذور والقصائد . على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية تشغل بالعكس في تاريخ أسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن ونصف ، وتخصه الرواية الأسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الأسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وننظر دائماً إلى ذلك الاستشهاد المذبح الذى فرضته أسبانيا على الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وإلى تلك الآثام المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التى اتخذت لتشريد الموريسكيين وإبادتهم بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإيقاظ القومى وتطهيراً للدين والوطن من آثار العدو المغير وآثار تراثه الروحى والاجتماعى . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ أسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحاسية التى تشيد بظفر أسبانيا النصرانية وبما أسبغته العناية الالهية على خطتها وسياستها فى إبادة الأمة الأندلسية ثم العرب المنتصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الاسلامية المحيطة التى ازدهرت فى أسبانيا ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها وكل ذلك التراث الباهر . على أن الرواية الأسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر ، وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها وعن تراثها القومى والروحى .

وليس تاريخ الموريسكيين قصة عادية لشعب مغلوب بل هى قصة العهود المنتهكة والنكث المدبر ، وقصة التعصب القومى والدينى المضطرم ، وهى أخيراً نضال الضعيف المكوم ، ولكن الأبى الباسل ضد قوى جرارة لا قبل له بمغالبتها ، ولكنه يتفانى فى صراعها حتى تصرعه وتقتضى عليه شهيداً كريماً . كانت الأمة الأندلسية حينما سقطت غرناطة حصنها الأخير فى يد الأسبان وقضى عليها بالغلبة والذلة السياسية زهاء ثلاثة ملايين من الأنفوس تحتشد فى رقعة ضيقة ولكن نضرة زاهرة فيما بين نهر شنيل والبحر وتشمل عدا غرناطة

(١) هى المعروفة خطأ بمحاكم التفتيش Inquisition .

عدة من القواعد والشعور مثل وادي آش وبسطة والمرية ومالقة ، وكانت معاهدة التسليم التي عقدها أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس مع الملكين الظافرين فرديناند وزوجه إيزابيلا تكفل للأمة المغلوبة ضمانات مؤكدة بتأمين النفس والمال والعرض ، واحترام الدين والشعائر القومية ، والابقاء على شريعتهم ومساجدهم ، وعدم إرغامهم على التنصير ، وأن يجوز منهم إلى بلاد المغرب من شاء ، وألا يعرضوا على العموم لأية فروض أو قيود تحد من حرياتهم أو معتقداتهم أو تسيء إلى كرامتهم . وتضم معاهدة التسليم زهاء ستين شرطاً تدل في روحها وتفصيلها على ما كان يخالج الأمة المغلوبة من ضروب الريب والتوجس في نيات سادتها الجدد .

والواقع أنه لم تمض أعوام قلائل حتى حدث ما توقعته الأمة المغلوبة من نكث وانتهاك للعهود المقطوعة ، وكانت السياسة الاسبانية يذكيها وحى الأبحار المضطرب ، ترى أنه لا بد لتحقيق ظفرها الكامل أن تسحق الآثار الأخيرة للإسلام وأن تمحى الخواص والتقاليد القومية للشعب المغلوب . فبدأت بتحويل نصوص ، المعاهدة ، والتنكر للمسلمين واضطهادهم . وفي سنة ١٤٩٩ اتخذت الاجراءات العنيفة الأولى لتنصير المسلمين على يد الكردينال كنييس بطران طليطلة ، ولم تدخر القوة وسعاً في تنفيذ مآربها ، وأرغمت جموع كبيرة من أهل غرناطة على نبد دينها واعتناق النصرانية ، وحملت المحنة والتعلق بالوطن وهموم الأسرة والابقاء على الأهل والولد كثيراً من الأعيان والفقهاء على اعتناق الدين الجديد . وأتبع الكردينال ظفره بجمع الكتب العربية والمصاحف وحرقتها في ساحة غرناطة ليقضي على علوم الأمة المغلوبة وتراثها الروحي والعقلي ، وخرجت الأمة الأندلسية من هذه المحنة المؤلمة باسم جديد هو أمة المورييسكيين Moriscos أو العرب الأصاغر أو العرب المنتصرون .

وعملت السياسة الاسبانية في الوقت نفسه على إنشاء ديوان التحقيق Inquisition في غرناطة . وقد كانت هذه المحاكم الكنسية المروعة تعمل من قبل في أشبيلية وغيرها لمطاردة اليهود وأهل الزيغ ، فألفت في المورييسكيين فرائسها الجدد مرتعاً خصباً لنشاطها الرهيب ، وكانت تأخذ أولئك المنتصرين الأحداث بأثفه الشبه التي يمكن تصورها ، فاذا امتدح المورييسكي دين محمد أو باشر بعض عوائده القديمة كالاحتفال بيوم الجمعة أو التحدث باسم الله

أو إذا سمى أولاده بأسماء عربية ، أو صام رمضان ، أو امتنع عن أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر ، أو ركع أو سجد ، أو أنشد الأناشيد العربية أو خضبت المرأة يديها أو شعرها ، أو غير ذلك من الشبه الماثلة اعتبر مرتدا كافراً ، وعوقب بعقوبات شنيعة تصل إلى حد الموت والمصادرة ، هذا فضلاً عما يكتنف المحاكاة من إجراءات التعذيب المروعة ، وهي إجراءات لا يتسع المقام لشرحها (١) .

وتجهم الأفق حول الموريسكيين شيئاً فشيئاً وتتابع التشريعات والقوانين المرهقة ، فعليهم أن يسكنوا في أحياء خاصة لا يتعدونها على نحو ما كان يلزم اليهود بالسكنى في « الجيتو » ، وعلى كل مسلم بقى على دينه أن يبادر إلى التنصير في ظرف ثلاثة أشهر أو يترك الأرض الإسبانية تاركاً أملاكه للدولة ، وعليهم ألا يحملوا السلاح وإلا عوقب المخالفون بأشد العقوبات . ولم تكن هذه القوانين المرهقة تلقى دائماً من الموريسكيين قبولا سهلا بل كانت منهم جماعات كثيرة في غرناطة وبلنسية وغيرهما تجنح إلى المقاومة والثورة . وكانت ثورهم الأولى في سنة ١٥٠١ في مفاوز البشرات وفيها قتلوا جمعاً كبيراً من الاسبان وقائداهم الدوق آجيلار ، واضطرت الحكومة الإسبانية أن تصدر لهم عفواً . بيد أنها اتخذت هذه المقاومة ذريعة للتشدد في معاملة الموريسكيين واعتبارهم خونة مارقين ، واعتبر التنصير أقل ما يجب فرضه عليهم . وأقر مجلس الدولة في عهد الامبراطور شارلكان هذه النظرية وصدرت على أثر ذلك عدة قوانين جديدة حرم فيها على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة ، وحرم عليهم في بلنسية حمل السلاح ، وألزموا بتغيير الثياب العربية ، على أن هذه القوانين المرهقة طبقت مدى حين في نوع من الرفق والتساهل .

فلما كان عهد ولده فيليب الثاني ، كان التنصير قد عم المسلمين ، وأصبحوا يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية ، ولكنهم مع ذلك لم يحظوا بعطف الحكومة الإسبانية ، ولم يحظوا بالأخص بعطف الكنيسة التي أبت بعد إرغامهم على اعتناق مذهبها أن تضمهم إلى حظيرتها . وكان فيليب الثاني ملكاً شديد التعصب يقع تحت تأثير الأجار ونصحهم ، فهبت في عهده على الموريسكيين ريح شديدة

(١) تناولت في كتابي ديواني التحقيق والمحاکمات الكبرى ، دستور هذه المحاكم الشهيرة واجراءاتها في التحقيق والتعذيب والمحاكمة بتفصيل واف .

من الارهاق والتعصب ، وأحييت القوانين القديمة وصدرت قوانين جديدة تحرم عليهم حمل السلاح وتمنعهم من التخاطب بالعربية أو التعامل بها بعد مرور ثلاثة أعوام ، وتحرم عليهم قراءة الكتب والأوراق العربية ، وتلزمهم بترك الثياب العربية وارتداء الثياب الأوربية ، وتلزم نساءهم بترك الحجاب وارتداء الثياب المكشوفة ، وتحريم الخضاب وتحريم الأناشيد العربية ، وفتح المنازل أثناء المآدب والاحتفالات للتحقق من أنها لا تجرى وفقاً للتقاليد العربية ، وغير ذلك بما يقصد به إلى القضاء الأخير على البقية الباقية من خواص الأمة المغلوبة وتقليدها .

وكان هذا أشد ما تتحمل الطاقة البشرية . وكانت ثمة جذوة أخيرة ما زالت تنقد في نفوس هذا الشعب الأبى التالذ الذي حطته الخطوب والرزايا . وكان صدور القوانين الجديدة وما بدا من تشدد في تطبيقها نذيراً بانفجار جديد يذكيه اليأس المطبق ، فاضطرت غرناطة بثورة جديدة عامة ، وبرز من بين الصفوف فتى يفيض حماسة وإقداماً هو فرديناندو دى فالور . وكان هذا الاسم القشتالى يجذب نسبة عربية ملوكية ؛ فقد كان هذا الزعيم الفتى ينتمى إلى بنى أمية خلفاء الأندلس القدماء ، ومن ثم فقد تسمى بمحمد بن أمية وبادر بالزوح مع جماعة كبيرة من أنصاره إلى وادى آش وهناك استعصم بشعب البشرات وأعلن الثورة ( سنة ١٥٦٨ ) وفتك الاسبان في غرناطة بالنساء والأطفال ، وتفاقت الحوادث وتكررت المعارك في أنحاء البشرات وفي غرناطة ، وندب فيليب الثانى أخاه الدون خوان على رأس قوة كبيرة لإخماد الثورة ، ولكنها استمرت في تفاقمها وهلك من الفريقين عدد جم ، كل ذلك ومجد بن أمية معتصم بقواته في شعب البشرات يغير هنا وهناك على القرى والمجالات المجاورة ، ويفتك حنده بالاسبان وعمال الحكومة ، ثم قتل مجد عميلة وخلفه في الرياسة قريبه مولاي عبد الله ، واستمرت المقاومة حيناً حتى نضب معين الثوار وساءت حالتهم ، وهنا قتل مولاي عبد الله أيضاً وإنهارت الثورة الموريسكية على أثر ذلك وسحقت ، وخبث آخر جذوة من العزم والتضال في صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وأصدر فيليب الثانى قانوناً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية . وقضت المشانق ومحارق ديوان التحقيق والمحن المتوالية على كل نزعة إلى الخروج

والنضال ، وهاجر كثير من الموريسكيين إلى بلاد المغرب في ظروف مؤثرة . وهبت في النهاية ريح من الرهبة والاستكائة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض العذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ولا تقوم لهم قائمة في ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى .

وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت بعد هذه المحن المتوالية وهذا النضال المضنى إلى جماعات مهيضة ممزقة تحتشد في بعض القواعد الجنوبية وفي بلنسية بالأخص . وكانت للموريسكيين صلات وعلائق خفية مستمرة باخوانهم في المغرب ، وكانوا يتوقون إلى مغادرة هذا الجحيم إلى ما وراء البحر ، ولكن الحكومة الإسبانية لبثت عصاراً تحول دون هذه الأمنية ما استطاعت ، وكانت ثمة ظاهرة مزعجة تحفزها إلى حجز الموريسكيين والتشدد في مراقبتهم ، تلك هي الغارات البحرية على الشواطئ الإسبانية ، وهي غارات قام بتنظيمها أكابر البحارة الترك مثل الأخوين أزوج وخير الدين وطرغود ، وكان قوامها جماعات من المجاهدين المغاربة أو الموريسكيين الفارين ، وكانت السفن الغيرة تنقض على الشواطئ الإسبانية ما بين آن وآخر تحت جنح الليل تختطف جماعات كبيرة من الموريسكيين وكذلك الاسبان ، وكان الموريسكيون في الثغور ولا سيما في بلنسية يمدونها بالتوجه والارشاد . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، وكانت تمثل بالأخص انتقام الموريسكيين وزملائهم المجاهدين المسلمين لما حل بالأمة الأندلسية من شنيع الظلم والاضطهاد . وانتهت السياسة الإسبانية إلى أن تعتبر الموريسكيين عنصراً خطراً على سلامتها يأتهم مع العدو ويجب التحوط منه والقضاء عليه . وكانت الحكومة تفكر منذ أيام فيليب الثاني في مشروع ضخم تتخلص به أسبانيا من هذا العنصر الخطر . ففي أوائل عهد فيليب الثالث عكفت السياسة الإسبانية على وضع خطتها النهائية للتخلص من الموريسكيين بقايا الأمة الأندلسية ، وانتهت بعد طول البحث والجدل إلى اتخاذ خطتها الشهيرة بنفي الموريسكيين وإجلاتهم عن سائر الأراضي الإسبانية ، وأعلن مرسوم النفي النهائي في سبتمبر سنة ١٦٠٩ واتخذ المرسوم سنده في خيانة الموريسكيين واتصلهم بأعداء أسبانيا ، ووضعت إجراءات شاملة للنفي وتصفية المسائل المتعلقة به من شخصية ومالية ، وحددت مدد ضئيلة لانتقال الموريسكيين

إلى الثغور التي ينتقلون منها . وحشد الموريكيون جماعات ممزقة دامية في مختلف الثغور الاسبانية ، وحملوا في مناظر مؤثرة مؤلة إلى ثغور المغرب ، وسارت منهم جماعات أخرى إلى ثغور فرنسا وإيطاليا وهلك منهم ألوف في السفن وعلى الشواطئ التي ألقوا فيها ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء ، وسارت منهم جماعات إلى مصر وقسطنطينية ، واستقر معظم الناجين في ثغور المغرب وعاد معظمهم إلى دين الآباء والأجداد . وبذلك ينتهي الفصل الأخير في مأساة الموريكيين أو العرب المنتصرين ، وتغيب البقية الباقية من الأمة الأندلسية وتطوى إلى الأبد صفحة شعب من أنبل وأمجد شعوب التاريخ .

تلك هي قصة الموريكيين التي ينظر لها الفؤاد أسى والتي تملأ أكثر من مائة عام من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومع ذلك فهي قصة مطوية منسية في الرواية العربية .

وقد أثارت قصة الموريكيين عطف العالم الغربي وكثرت حولها الآراء والتعليقات في المؤلفات الغربية ، ويكاد البحث الحديث يجمع على أن إبادة الأمة الموريكية كان ضربة أليمة لعظمة أسبانيا ورخائها ، وأن أسبانيا الحديثة لم تنهض من هذه الضربة قط . وهو رأى يؤيده كثير من المؤرخين والمفكرين الاسبان أنفسهم .

محمد عبد الله عنانه